غزوة بني قينقاع

في منتصف شوال سنة ٢ هـ

لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ صار الكفارُ معه ثلاثة أقسام:

١- قِسْمٌ: صالحهم ووادَعَهُم ألاَّ يُحاربوه، ولا يُظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدُوَّهُ، وهم - على كُفْرهم - آمنون على دمائهم وأموالهم.

٢- وقِسْمٌ: حاربوه وناصبوه العداوة.

٣- وقِسْمٌ: تركُوه، فلم يُصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يَؤُول إليه أمْرُه وأمرُ أعدائه، ومِنْ هؤلاء من كان يُحبُّ ظهورَه وانتصاره في الباطن، ومنهم مَنْ كان يُحبُّ ظهورَ عدوِّه عليه وانتصارهم، ومنهم: مَنْ دخل معه في الظاهر، وهو مع عدُوِّه في الباطن؛ ليَأْمَنَ الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعَامَل ﷺ كُلَّ طائفة من هذه الطوائف بما أمره به رَبُّه - تبارك وتعالى - فصَالَح يهودَ المدينة، وكتَبَ بينهم وبينَهُ كتابَ أَمْنٍ.

فما الذي جرى بعد موادعتهم؟ وما الذي وقَعَ منهم؟

لكننا قبل أن نقرأ ذلك ونَعْرِفَهُ، نودُّ أن نذكر مُبادَرَةَ مَنْ بادَرَ منهم إلى اتِّباع الحق الذي يعرفونه.

إسلام عبدالله بن سلام:

قال ابن إسحاق:

وكان من حديث عبدالله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أَسْلَمَ، وكان حَبْرًا[1] عالماً.

---

(١) الحَبْرُ: العالِم ذميّاً كان أو مسلماً، ومعناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه، وقيل: الحِبْرِ هو الرجل الصالح.

قال: لَمَّا سمعْتُ برسول الله ﷺ عرفْتُ صفَتَه واسمَه وزمانَه الذي كُنَّا نترقب ونتوقع له، فكنتُ مُسرًّا لذلك صامتاً عليه، حتَّى قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ.

فلَمَّا نَزَل بقُباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجلٌ حتَّى أخبرَ بقُدومه وأنا في رأس نخلٍ لي أعمل فيها، وعمَّتي خالدةُ بنتُ الحارث تحتي جالسةً.

فلَمَّا سمعتُ الخبرَ بقُدوم رسول الله ﷺ كبَّرْتُ.

فقالت لي عمَّتي حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله. والله، لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زِدْتَ.

فقلت لها: أيْ عَمَّة، هو والله أخو موسى بن عِمْران، وعلى دينه، بُعثَ بما بُعثَ به.

فقالت: أي ابنَ أخي، أهو النبيُّ الذي كنَّا نُخبَرُ أنَّه يُبْعث مع نفس الساعة؟

فقلتُ لها: نعم.

قالت: فذاك إذًا.

قال: ثُمَّ خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثُمَّ رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتُهم فأسلموا.

قال: وكَتَمْتُ إسلامي من يهود، ثُمَّ جئْتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ له:

يا رسول الله، إنَّ يهودَ قوم بُهْت[1] وإنِّي أُحبُّ أنْ تُدخلني في بعض بُيوتك، وتُغَيِّبَنَي عنهم، ثُمَّ تسألهم عنِّي؛ حتَّى يُخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إنْ علموا به بهتُوني وعابوني.

قال: فأدخلني رسولُ الله ﷺ في بعض بُيوته، ودخلوا عليه فكلَّموه وساءَلُوه، ثُمَّ قال لهم:

---

(١) قوم بُهْت: أي قوم كذب وافتراء.

أيُّ رَجُلٍ الحُصين بن سلام فيكم؟

قالوا: سيِّدُنا، وابن سيِّدنا، وحَبْرُنا وعَالِمُنَا.

قال: فلَمَّا فَرَغوا من قولهم خَرَجْتُ عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقْبَلُوا ما جاءكم به؛ فوالله إنَّكم لَتَعْلَمُونَ إنَّه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصِفته، فإني أشهد أنَّه رسولُ الله ﷺ وأُومن به وأُصَدِّقُه وأعرفُه.

فقالوا: كَذَبْتَ. ثُمَّ وقعوا بي.

قال: فقلتُ لرسول الله ﷺ ألَمْ أُخْبرك يا رسول الله أنَّهم قَوْم بُهت؟!

قال: فأظهَرْتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي، وأَسلمَتْ عمَّتي خالدةُ بنتُ الحارث فَحَسُنَ إسلامُها.

خَاطرَةٌ أُسجِّلُها:

عندما وصلتُ إلى قول عبدالله بن سلام «فلَمَّا نزل - يقصُد الرسولَ ﷺ - بقُباء أقبلَ رجلٌ حتَّى أخبر بقُدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعملُ فيها، وعمتي خالدةُ بنت الحارث تحتي جالسةً، فلَمَّا سمعت الخبرَ بقُدوم رسول الله ﷺ كبَّرْتُ» وتذكرتُ ما كان من أَمْر سلمان الفارسي رضي الله عنه حين علم بقُدوم رسول الله ﷺ فقد كان على رأس نخلة يعمل فيها لسَيِّده.

يقول سلمان رضي الله عنه: «فَوَاللَّه إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي جَالِسٌ تحتي، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يا فُلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ؛ وَاللَّهِ إِنَّهُمُ - الآنَ - لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

قَالَ سَلْمَانُ: فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ، حتَّى ظَنَنْتُ أني سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، فَنَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابن عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ؟ مَاذَا تَقُولُ؟

فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ:

مَا لَكَ وَلِهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ»

*****

يا لَلَّه! سلمان الفارسي وعبدالله بن سلام كلاهما سمع بقدوم الرسول ﷺ وهو على رأس نخلة، فكان منه ما كان!!

وسلمان فارسي قدم إلى المدينة بعد أن سمع من الأحبار ما سمع، وابن سلام سيِّدٌ من أحبار اليهود، وهو في المدينة ويعرف من أمْر الرسالة ما يعرف!!

كلاهما يتلقى الخبر وهو على رأس نخلة.

والحديث عن النخلة يُنبئ عن أنَّ المؤمن لَصِيقٌ بصفاتها، وهي الشجرة التي شبَّه الرسول ﷺ المؤمنَ بها(١).

بُورِكَتْ نَخْلَةٌ كان سلمان على رأسها، وبُورِكَتْ نَخْلَةٌ كان عبدالله بن سلام على رأسها، وبُورِكَ كُلُّ عطاء لها، و بُورِكَ كُلُّ عمل لسلمان وعبدالله بن سلام.

وأعود بعد هذه الخاطرة إلى من أَسْلَمَ من يهود غير عبدالله بن سلام.

حديث مُخَيْرِيق:

قال ابن إسحاق:

وكان من حديث مُخَيْرِيق، وكان حَبْراً عالِمَاً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النَّخْل، وكان يعرف رسولَ الله ﷺ بصفَته وما يجدُ في علْمه.

---

(١) في الصحيحين عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِم، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قَالَ عَبْدُ اللَّه: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ» البخاري - كتاب العلم، حديث رقم ٥٩، مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث رقم ٥٠٢٧.

وغلَبَ عليه إلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك حتَّى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحُد يومَ السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنَّكم لَتَعْلَمُونَ أنَّ نَصْرَ محمد عليكم لحَقٌّ.

قالوا: إنَّ اليومَ يومُ السبت.

قال: لا سبتَ لكم.

ثم أخذ سلاحه، فخرج حتَّى أتى رسولَ الله ﷺ بأُحُد، وعَهِدَ إلى مَنْ وراءَه من قومه: إنْ قُتِلتُ هذا اليومَ، فَأَمْوالي لمحمد ﷺ يصنعُ فيها ما أراه الله.

فلما اقْتَتَلَ الناسُ، قاتل حتَّى قُتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: «مُخيريق خيرُ زُفُر»(١).

وقَبَضَ الرسولُ ﷺ أموالَه، فعامَّة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لَمَّا رأى يهود بني قينقاع نصرَ المؤمنين في بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة، تميزت قِدَرُ غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

ذكر محمدُ بن إسحاق بن يسار، عن عاصم بن عمرو بن قتادة، أن رسول الله ﷺ لَمَّا أصابَ من أهل بَدْر ما أصَابَ، ورجعَ إلى المدينة جَمَعَ اليهودَ في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يُصيبَكُم الله بما أصَابَ قريشاً.

فقالوا: يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ من نفسك أنك قتَلْتَ نَفَرًا من قريش كانوا أغْمَارًا لا يعرفون القتال، إنك - والله - لو قاتَلْتَنا لَعَرَفْتَ أنَّا نحنُ الناس، وأنك لم تَلْقَ مثلَنا.

فأنزل الله في ذلك من قولهم:

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥٠١/١.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

أي: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أيُّها اليهود القائلون ما قُلْتُم ﴿آيَةٌ﴾ أي: دلالة على أن الله مُعزٌّ دينَهُ، وناصرُ رسولَه، ومُظْهر كلمتَه، ومُعْلٍ أمْرَه.

﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي: طائفتين ﴿الْتَقَتَا﴾ أي: للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم مشركو قريش يوم بَدْر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ قال بعض العلماءُ - فيما حكاه ابن جرير-: يرى المشركون يوم بَدْر أن المسلمين مِثْلَيْهم في العدد رأيَ العين، أي: جعل الله ذلك فيما رَأَوْه سبباً لنُصْرَة الإسلام عليهم ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: إن في ذلك لَعِبْرة لمن له بصيرةٌ وفَهْمٌ؛ ليهتدي به إلى حُكم الله وأفعاله وقَدَره الجاري بنَصْر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

*****

كان بنو قينقاع - كما ذكرنا - أولَّ من نَقَضَ العهد من اليهود، وحاربوا رسولَ الله ﷺ فيما بين بَدْر وأُحُد وكان سبب الحرب بينهم وبين المسلمين كما ذكر ابن هشام قال:

كان من أمْر بني قينقاع أنَّ امرأة من العرب قَدمت بِجَلَبٍ لها[2] فباعَتْه بسوق بني قَينقاع، وجلست إلى صائغ به، فجعلوا يُريدُونها على كَشْف وجهها، فأَبَتْ فَعَمد الصائغُ إلى طَرَف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت

(١) آل عمران: ١٢، ١٣.
(٢) الجَلَب: هو كل ما يُجلب للأسواق ليُبَاع.

سَوْأَتُها، فضحكوا بها فصَاحَتْ، فوثَبَ رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقَتَلَهُ - وكان يهودياً - وشدَّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمينَ على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قَيْنُقَاع.

حصارُ بني قينقاع وإجلاؤهم:

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال:

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتَّى نزلوا على حُكمه، وكانوا خلفاء عبدالله بن أُبي ابن سَلُول رئيس المنافقين، فكَلَّم عبدُ الله بن أُبيٍّ رسولَ الله، وألَحَّ عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه.

وذكر ابنُ إسحاق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال:

لما حاربَتْ بنو قينقاع رسولَ الله ﷺ تَشَبَّثَ بأمرهم عبدالله بن أُبَيّ بن سلول، وقام دُونهم، قال: ومشى عبادةُ ابن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحَدَ بني عوف، وكان لبني قينقاع من حِلْفِه مثلُ الذي لهم من عبدالله بن أُبَيّ، فَخَلَعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرَّأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ من حِلْفهم، وقال: يا رسول الله، أتولَى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبْرَأُ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم.

قال: ففيه وفي عبدالله ابن أُبي نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ أي: كعبدالله ابن أُبَيّ، وقوله: إني أخشى الدوائر ﴿**يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...**﴾.

ثم القصة إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾.

وذكر لتولِّي عبادةُ بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا، وتَبَرّئه من بني قَيْنقاع وحِلْفهم وولايتهم ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾(١).

هذا والمراد بالولاية في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**﴾ ولاية التناصُر والمحالفة، وقيَّده بعضُهم بكَونها على المؤمنين، وأنَّ النَّهْي لأفراد المسلمين وجماعاتهم دُون جمُلتهم، وأنه يشمل المؤمنين الصادقين وغيرَهم؛ لأنه مُقدِّمة للإنكار على مرضى القلوب الذين يتخذون لهم اليَد عندهم؛ لعدم ثقتهم ببقاء الإسلام وثَبَات أهله.

فالنَّهْيُ هو أن يُوالي أفرادٌ أو جماعاتٌ من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المُعادين للنبي والمؤمنين، ويُعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين؛ رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خُذِل المسلمون وغُلبُوا على أمرهم.

ونُكْتةُ التعبير عنهم باليهود والنصارى دون أهل الكتاب، هي أن مُعاداتِهم للنبي والمؤمنين إنما كانت بحسب جنسياتهم، لا من حيث أن كتابهَم يأمُرهم بذلك.

هذا النهي عن ولاية أهل الكتاب مثل النهي عن ولاية المشركين في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ...**﴾(٢).

---

(١) المائدة: ٥١ - ٥٦.

(٢) الممتحنة: ١.

وقد نزلت في «حاطب بن أبي بَلْتَعة» لَمَّا كتب إلى قريش يُخبرهم بعَزْم النبي ﷺ على حَرْبهم، لأن له عندهم مالاً وأهلاً، فأراد أن يتخذ عندهم يداً لأجل حماية أهله.

والنهي عن الشيء - لسبب من الأسباب - لا يتناول من لم يتحقق فيهم، ولا ينافي زوال النهي بزوال سببه.

ولذلك قال تعالى بعد هذا النهي في سورة الممتحنة: ﴿**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1].

فهذه الآيات نَصٌّ صريحٌ في كَوْن النهي عن الولاية لأجل العداوة، وكَوْن القوم حرباً، لا لأجل الخلاف في الدين لذاته، فإن النبي ﷺ لَمَّا حالف اليهودَ كتب في كتابه: «لليهود دينُهم وللمسلمين دينُهم» كما أمره الله أن يقول لجميع المخالفين ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[2].

ومن البيِّن الواضح أن رأسَ النفاق عبدَ الله بن أُبي هو المَعْنِيُّ - أولا - بقوله تعالى: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**﴾ والمراد بـ ﴿**الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ هم المنافقون الذين ستروا نفاقَهم بالدخول في الإسلام والانضواء تحت لواء المسلمين؛ ليتخذوا من الإسلام تجارةً يتّجُرون بها في سُوق السُّحْت والاختلاس، وهذا لا يكون إلا من قلب مريض، يستقبل كُلَّ ضلال دون أن يَغَصَّ أو يَزوَرَّ عنه.

---

(١) الممتحنة: ٧ - ٩.

(٢) الكافرون: ٦.

والمسارعة فيهم - أي في أهل الكتاب -: الانغماس فيهم، ولهذا جاء اللَّفظ القرآني بتعدية الفعل «سارع» بحرف الجر «في» بَدَلاً من تعديته بحرف الجر «إلى» الذي يتعدى به هذا الفعل غالباً، كقوله تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾(١).

وفي تعْديَة الفعل بحرف الجر (في) ما يكشف عن أن هؤلاء المنافقين ينغمسون في أهل الكتاب، ويدخلون فيهم دُخولاً كاملاً، حيث يحتويهم ظرفٌ واحدٌ، إذ هم كيانٌ واحدٌ يألف بعضُه بعضاً.

وفي قوله: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ تشهيرٌ بهؤلاء المنافقين وفَضْحٌ لهم، وأنهم - وإن لبِسُوا كلَّ أثواب التَّخفِّي - لا يلبَث أمرُهم أن ينفضح وينكشف، وأنهم بمرْأَى من النبي والمؤمنين، ولهذا جاء الفعل (ترى) وكأنه يُشير إليهم، ويُحدِّد موقفَهم الذي هم فيه في الجبهة الأخرى، جبهة أهل الكتاب.

وهكذا المنافق دائماً، إن لم يَلتَفِتْ إليه أحدٌ، دلَّ - هو - الناسَ عليه بكثْرة التفَاتِه إليهم وحذَره منهم، وصَدق المَثَلُ الذي يقول: «يكادُ المُريبُ يقول: خُذُوني».

وقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ**﴾ هو ترجمةٌ لهذه التصورات المريضة التي يعيش فيها المنافقون، فهم - أبداً - على خوف وقلق، لا يسكنون إلى أمر، ولا يقيمون على رأي، بل تراهم وأعينُهم تَدُورُ هنا وهناك، يريدون أن يجمعوا بين الشيء ونقيضه؛ حتَّى إذا فَاتَهُم هذا لم يَفُتهم ذاك.

فهم مع المؤمنين يخشون أن تكون الكَرَّة لأهل الكتاب، وهم مع أهل الكتاب يخشون أن تكون الدولةُ للمؤمنين. ولهذا فهم يَلبسون الإيمان ظاهرًا، ثُمَّ يُوَادُّون أهل الكتاب باطنًا.

---

(١) آل عمران: ١٣٣.

وبهذا - كما تُصَوِّر لهم نفوسُهم المريضةُ - يحمون أنفسَهم من أيِّ أذى يصيبهم من أية جبهة غَلَبَت، إذ سُرعان ما يتحولون إلى الجهة الأخرى التي كانوا قد احتفظوا بمكان لهم فيها.

فهؤلاء الذين يُوادُّون غيرَ المؤمنين، ويُلْقُون بأنفسهم في أهل الكتاب، وَيُوَثِّقُون صِلاَتهم بهم، إنما يفعلون هذا ليكون لهم منه شفيعٌ عند أهل الكتاب إذا كان لهم الغَلَبُ يوماً على المؤمنين، فلا يُصيبهم من الدائرة - وهي الهزيمة وما يلحق أصحابها من أذى - ما يُصيب المؤمنين إذا هم أصابتهم الدائرةُ التي يتوقعها المنافقون لهم.

وقوله تعالى: ﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾[1] هو وعيدٌ للمنافقين بما يملأ قلوبَهم حسرةً وَنَدماً، إذ جاء تدبيرُهم وبَالاً عليهم وخُسراناً لهم، حتَّى قَدَّروا أن الدائرة ستَدُورُ على المؤمنين، فأخْلَوا مكانَهم من بينهم، واتخذوا أهلَ الكتاب أولياءَهم.

ثم هو وَعْدٌ كريمٌ من الله يجئ بتلك البُشْرَيات المُسْعِدَة للمؤمنين، وبأنهم هم المنتصرون، وأن الخزي والخُذلان لأعدائهم ولَمَنْ انضوى إليهم من المنافقين.

﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ**﴾ الذي يُمَكِّن المؤمنين من أعدائهم.

وقد جاء نَصْرُ الله والفتحُ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجًا، فَدَالَتْ دولةُ الشرك، وذهبت ريحُ النفاق والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿**أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**﴾ أي: تدبير من عند الله يجيء على غير انتظار وعلى غير عمل من المؤمنين، كأن يُوقِع الشِّقاقَ والخلاف بين أحلاف السُّوء ومجتمع الضلال، فيفضح بعضُهم بعضاً، ويخذُل بعضُهم بعضاً، فإذا أولياء الأمس أعداء اليوم، يبرأ بعضُهم من بعض.

---

(١) المائدة: ٥٢.

وحمل هذا الوعد الكريم من الله للمؤمنين على يدي فعل الرجاء «عسى» إنما ليُقيم المسلمين على رجاء وأمل في رحمة الله بهم وفضله عليهم، فتظَلُّ قلوبُهم شاخصةً إلى الله، ذاكرةً له، تَرْقُبُ غُيُوثَ رحمته وفواضل نِعْمَته.

ولو جاء هذا الوعدُ الكريمُ قاطعاً مُنَجَّزاً لَمَّا بعثَ في القلوب المؤمنة تلك المشاعر المتجدِّدة، ولَمَا أمسك بها هذا الزمن الطويلَ مُتَشَوِّفَة - بأبصارها وقلوبها - إلى غُيُوث رحمة الله ومواطر أفضاله ونِعَمِه.

وقوله تعالى: ﴿**فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ هو عَرْض لتلك النهاية التي ينتهي إليها أمْرُ هؤلاء المنافقين، وما يؤُول إليه عاقبةُ مَكْرهم وتدبيرهم، إنه الندم والحسرة والخُسران.

وقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ**﴾ هو عَرْضٌ لهؤلاء المنافقين في مَعْرض آخر من معارض الخزي والفضيحة، فبعد أن دعا الله - سبحانه وتعالى - كلَّ ذي نَظَرٍ أن ينظر إلى هؤلاء المنافقين، ويشهد كيف يتهالكون على أهل الكتاب، ويَرْتَمُون في أحضانهم؛ خوفًا من أوهامٍ مُتَسلِّطة عليهم، بعد أن عرضهم الله - سبحانه - هذا المعرض الفاضح، وتوعدهم بالخزي والخسران بنَصْر الله المؤمنين، وبخُذْلان الكافرين والمنافقين، جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ تدعو المؤمنين إلى أن يُديرُوا النظر مرَّة أخرى إلى هؤلاء المنافقين، وأن يُقَلِّبُوا صفحات تاريخهم في الإسلام ويَتَتَبَّعوا مسيرتَهم معه، ثُمَّ لِيُصْدِرُوا حُكمَهم عليهم.

وهنا يكْثُر حديثُ المؤمنين عن هؤلاء المنافقين، ويَلْقَى بعضُهم بعضًا بما اطَّلعوا عليه من نفاقهم، فتكثر فيهم القَالةُ، ويَكْثُر العُجْب والدَّهش من أمرهم، وإذا الفضيحةُ تُجَلْجِلُ بصوتها في كل أُفُق، وتتحرَّكُ بأشباحها في كُلِّ مكان.

وليس ما حكاه القرآن من مَقُولة المسلمين فيهم: ﴿**أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ**﴾ ليس هذا كُلُّ ما قيل فيهم، إنما هو مضمون ما

قيل، وضميمُ ما ينبغي أن يُقال في هؤلاء المنافقين؛ إذ إنهم كانوا يحلفون بالله للمؤمنين جَهْدَ أيمانهم، أي: بأَغْلَظ أيمانهم وآكَدِها، إنهم لَمَعَ المؤمنين، ولن يَتَخَلَّوْا عنهم في حربٍ أو سِلْم، وهذا الحَلِفُ نفسُه والمبالغة فيه، هو الذي يكشفُ المستور من أمرهم، ويُعطي الدليلَ على أنهم على غير الإسلام، إذ أنهم لو كانوا مسلمين حقًا لَمَا حَلَفُوا وأكَّدوا الحلف أنهم مؤمنون ومع المؤمنين، فما دعاهُم أحدٌ أن يحلفوا.

ولكنَّ كائنَ النِّفاق - الذي يعيش في كيانهم - هو الذي حملَهم على أن يستروا كَذِبَهُم ونفاقَهم بهذه الأيْمَان المؤَكَّدة، حتَّى لا يُفتَضَح ما في قلوبهم

وهكذا المجرم يَحُومُ حول جريمته، يريد أنْ يُخفي معالَمَها حتَّى ولو لم تكن هناك معالم لها؛ لأنه - لخوفه - يتصَوَّر أن كُلَّ ما كان في مكان الجريمة - من كائنات - شاهدٌ عليه يُنادِي في الناس بالإمساك به قبل أن يُفْلت.

وقوله تعالى: ﴿**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**﴾ أي: فسَد تدبيرُهم، وخاب ظنُّهم، وبطل سَعيُهم، فكان ذلك خُسْرانٌ لهم أيّ خُسران.

خسروا المؤمنين الذين أصبحوا فيهم وقد افتضح أمرُهم لهم، وخسروا أولياءَهم من أهل الكتاب بعد أن أصابتهم الهزيمةُ، وعَلَتْ رايةُ الإسلام، وعَزَّت كلمتُه.

كان على المسلمين - بعد هذا - أن يُراقبوا أنفسَهم، وأن يأخذوا حِذْرَهم من أن يَرِدُوا هذا المَوْرِد الآسِن الآثم.

فجاء قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

(١) المائدة: ٥٤.

مُنَبِّهَاً لهم ومُحَذِّراً من أن يرْتَدَّ منهم عن دينه كما ارْتَدَّ هؤلاء المنافقون الذين عرفوا أَمرَهم ومصيرَهم.

فستكونُ عاقبة المُرْتدِّ منهم هي نَفْس عاقبة أولئك المنافقين: النَّدَم، والحَسْرَة، والخزى، والخسران المبين.

والارتداد معناه: الرجوع إلى وراء، والعودة إلى المكان الذي كان قد تحرَّك منه المُرْتَدُّ إلى الأمام، وهذا يعنى أنه يهدم ما بنى، ويَنْقُضُ ما غَزَل. ولا يفعل ذلك إلاَّ سَفيهٌ أَحْمَقٌ.

وفى إضافة الدين إلى المؤمن، وبلفظ المفرد هكذا ﴿**عَن دينه**﴾ ما يلفت المؤمنَ إلى هذا الدين الذي دخل فيه وأصبح من أهله، وأنَّهُ دينُه هو، وثَمَرَته عائدةٌ عليه وَحْدَه، وأنه الدِّين الذي ينبغي أن يعيش فيه، ويشتدَّ حِرْصُه عليه؛ إذ هو الدين الذي يَدينُ به كُلُّ عاقل.

إنه دينه إن كان من أهل العقل والرشاد.

ويكون معنى الآية هكذا: يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه، فَسَيَلْقَى ما لَقِيَ هؤلاء المنافقون الذين ارْتَدُّوا، من نكالٍ وبلاءٍ وسُوء مَصير.

ثم إنه لن يَضُرَّ اللهَ شيئًا، ولن يَضير المسلمين في شئٍ؛ لأنه سَيُخْلى مكانَه في الإسلام ليَأخُذَه مَن هو أوْلَى به منه، وأكرَمُ عند الله، وأكثرُ نَفْعَاً للمسلمين وهذا ما يُشير إليه قولُه: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾.

وهؤلاء القوم الذين سيأتي الله بهم، ويُدخلهم في دينه، قد وُصِفُوا بأوصاف أربعة:

أولاً: يُحِبُّهُمْ الله وَيُحِبُّونَهُ:

وحُبُّ الله لهم: دَعوتهم إلى الإسلام، وشَرْح صُدورهم له، وتثبيت أقدامهم فيه؛ لأنه – سبحانه وتعالى – هو الذي أَحَبَّهُم، وهو الذي اختارهم ودَعَاهُم.

وهذا فضلٌ عظيمٌ، ودرجةٌ من الرضا لا ينالُها إلا من أكرمه الله واستضَافه، وخَلَعَ عليه حُلَلَ السَّعَادة والرضوان.

جَعَلنَا الله من أَهْلِ مَحَبَّته وضيَافَته..

أما حُبُّهم هم لله، فهو في استجابة دعوته، وامتثال أَمْره، والولاء له ولرسوله وللمؤمنين.

ثانياً: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ:

إجماع المفسرين على أن هذا الوَصْف، هو وصَفٌ لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا في الإسلام، فكانت تلك صفَتُهم وهذا سُلوكهم ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي: متخاضعين للمؤمنين، لا يَلْقونهم إلا باللِّين والتواضع.

﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ أي: أشداء وأقوياء، لا يَلْقَى منهم أهلُ الكفر إلا بلاءً في القتال، واستبسالاً في الحرب، أمَّا في السِّلْم فهم جبالٌ راسخةٌ في الإيمان، لا ينال أَحَدٌ منهم نَيْلاً في دينه، ولا يطمَعُ أَحَدٌ من أعداء الإسلام في موالاتهم أو تعاطفهم معه.

هذا هو إجماع المفسرين في فَهْم هذا المَقْطَع من الآية.

ويستشهدون لذلك بقوله تعالى ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾(١).

هذا وإن قلبي ليستريح إلى أن هذه الأوصاف:

- يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.
- أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.
- أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.

---

(١) الفتح: ٢٩.

- يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.
- وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ.

مع أنها ثابتة للذين كانوا مع رسول الله ﷺ وقد عَنَتْهم الآيةُ الكريمةُ في سورة الفتح ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾.

إلا أن قولَه تعالى في آية المائدة: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ يدُلُّ على تَجَدُّد ذلك ووقوعِه، وأن الآيةَ تُبَشِّرُ بهم، وأنهم يدخلون في الإسلام، وربما كان ذلك بعد طُول عداءٍ وكَيْدٍ.

﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾.

وهنا تبدو هناك طريقٌ مفتوحةٌ - دائمًا - لَمَنْ يكيدون للإسلام - وهم غالباً أصحابُ دَوْلَةٍ وصَوْلَةٍ في مجتمع الكُفْر والضلال - ينفُذون منها إلى الإسلام، ويُعطون من قوتهم له ما أعطوه من قبل في حَرْبه وعداوته.

وفي تاريخ الإسلام شاهدٌ على ذلك أيُّ شاهد، وحسبُنا أن نذكر خياراً من الناس كانوا أشداءَ على المؤمنين، قد صاروا - من بعد - أشداءَ على الكفار رُحماءُ في حياة المؤمنين.

وحسبُنا أن نذكر ما كان عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما صار إليه.

وأن نذكر خالد بن الوليد، وكم كان حَرْباً على المسلمين في أحد، ثُمَّ صار - من بعد - سيفاً من سيوف الله في نَصْر الإسلام وإعلاء كلمة الله.

وعكرمة بن أبى جهل الذي فَرَّ، ثُمَّ عاد ليستقبله الرسولُ ﷺ في المدينة المُنَوَّرَة بقوله: «مرحباً بالرَّاكب المُهاجِر».

كم وكم في تاريخ الإسلام وقَعَ من ذلك، وقد أتَىَ الله بهم بعد عِنَادٍ وعداءٍ

وهنا يجب على من أَحْسَنَ التدبُّر أن يستحضر دائماً أن الرسول ﷺ قد أرسله الله رحمةً للعالمين، وأن الله قد أبقى دينَه، وحَفِظَ كتابَه ليكونَ بلاغاً للناس، ونذيراً للعالمين في كُلِّ زَمَنٍ وحين.

فلو ذهب جيلٌ جاءت من بعده أجيالٌ، ولو حُصِدَ نَبْتٌ لم يُحْصَد معه كل نَبتٍ قادم للإسلام.

والذين يتصوَّرون أن شمسَ الإسلام يمكن أن تغيبَ بغياب فريقٍ أو ذهاب جيلٍ يُخطئون، وقد يُسيئون ولا يُحسنون؛ فإن شمسَ الإسلام إن بَارَحَتْ رؤوس قَوْمٍ أَنَارَتْ عند آخرين، فلا يُضيرُه مَنْ ارْتَدَّ عنه أو تخلَّف عن مُناصرته.

ومن هنا كان النداء من الله لأهل الإيمان أن يستحضروا هذه الحقيقةَ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾.

فالنُّصرة له قائمةٌ في حياة الخَلْق، حاضِرَةٌ في أنباء الغيب ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ وهم الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لَوْمَة لائم.

وقد أجمل الله في حَقِّهم هذه الأوصافَ الأربعة؛ لتكون دليلاً لمن بعدَهم، وليكونوا هم أُسْوَة لمَن يُؤثرون مرضات الله، ويَنْشُدُون - في كُلِّ شأن - رضَاه.

وقد وَعَدَ الله أن يأتيَ بمَنْ تكون تلك صفاتهم ولو بعد حين؛ لتبقى رايةُ الجهاد في سبيله مرفوعةً لنُّصْرة الحق وإبطال الباطل، وليكون الإخلاص لله رائدَ كُلِّ مَن يبغي صلاحاً أو إصلاحاً في سبيل الله، لا في سبيل أحد سُواه.

ثالثاً: يجاهدون في سبيل الله:

وهذه هي الصفة الثالثة من صفات أولئك الذين يأتي الله بهم، ويدخلون في الإسلام:

فهم المسلمون الجُدُد الذين يدفعون عن الإسلام والمسلمين يد البغي والعدوان، ويُعطون ولاءَهم كُلَّه لدينهم الذي دعاهم الله إليه وارتضاهم له، لا يَضنُّون عليه بأنفسهم ولا بأموالهم.

رابعاً: وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ:

تلك هي الصفة الرابعة، وتُفيد أنهم لا يلتفون إلا إلى نُصْرَة دين الله، لا يُثنيهم عن ذلك لَوْمُ لائم من قريب أو بعيد، أو عدو أو صديق.

إنهم قد باعوا كُلَّ شئ، وتَخَلَّوْ عن كُلِّ شئ إلا إيمانهم بالله ونُصْرَتهم لدين الله.

وفَضْلُ الله لا يَضيق بأَحَدٍ، وخزائن الله لا تَنْفَد من عطاء.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾.

فيخطئ أهلُ الكُفْر والجحود إن هُم توهَّموا أن هزيمةً طارئةً قد تقع بالمسلمين يمكن أن ينتهي بها شأنُ إسلامهم.

وعلى العاقل أن يُفَرِّقَ بين تفريط جيل وذَهَاب دين.

إن دينَ الحَقِّ - الذي تكفل الله بحفظه - لا يضيع بضياع مَنْ فَرَّطَ أو ضَيَّعَ، وإنما هو بَاقٍ بعزَّة مَن أَعَزَّه، فلا يقترب من ساحته باطلٌ، ولا يُوقفُ مَدَّهُ حاسدٌ أو حاقدٌ، ولا يُطفئ نورَه أو يحبس ضوءَه مَفْتُونٌ بقوَّته أو مأخوذٌ بفتنته مَزْهُوٌّ بزينته.

وهذا وَضْعُهُ وتلك حقيقته: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**(١).

ثم يأتي - بعد ذلك - قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**(٢) ليكون دعوة للمؤمنين جميعاً، يستحضرونها ويطمئنون إليها، ويحذرون أن ينخدعوا لمَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإسلامُ قلبَه.

---

(١) فصلت: ٤١، ٤٢.

(٢) المائدة: ٥٥.

فإن من آثار الإيمان بالقلب أن يقيم المؤمنُ الصلاةَ، وأن يُؤتى الزكاةَ يُقيم الصلاةَ خاشعاً، ويؤتى الزكاةَ راضياً.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾(١).

وقد رأينا النتائج في وقائع عملية، ورأينا ذلك في واقعة بنى قينقاع، وقد كانوا أحلافاً لعبدالله بن أُبَىّ بن سلول ولعُبادة بن الصَّامت

فأما عُبادةُ بن الصَّامت فقد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إني أَبْرَأُ إلى الله من حِلْف يهود وولائِهم، ولا أُوالى إلا الله ورسولَه.

وكان عبدُ الله بن أُبَىّ حاضراً فقال: أمَّا أنا فلا أَبْرَأُ من حِلْفهم، فإني لابُدَّ لي منهم، إني رجلٌ أخافَ الدوائر.

وقد رأينا تحقيق قوله تعالى ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾

وذاك ما يُثْمُرُه صِدْقُ المولاة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ سُنَّةٌ لا تتعلق بزمان أو مكان، سُنَّةٌ لا تتخلَّف، وإن خَسِرَ المؤمنون بعضَ المواقف أو المعارك.

إنَّها سُنَّةٌ لا تُنْقَض بابتلاء أو امتحان، أو إبطاء نَصْر أو تعجيل فَوْز، فإن النَّصْرَ - في حقيقته - مرتبط بالعواقب، ومن تدبَّرَ العواقب أيْقَنَ يقيناً - لا شَكَّ فيه - أن الحقَّ لا يُهْزَمُ أبداً، وأن الباطل - مهما تطاول - زَاهِقٌ إزهاقاً لا ريب فيه.

فَلْتَكُن الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين في كُلِّ حَالٍ.

وذلك إنما يكون باستحضار العواقب، فإن مَنْ يُوالى الله يكون من حِزْبِ الله، ومَن كان في حِزْبِ الله فهو من الفائزين؛ لأنه في ضمان الله وفي جنده الذي لا يُغْلَبُ أبدًا.

---

(١) المائدة: ٥٦.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وإذا كان بنو قينقاع قد أظهروا البغي والحَسَدَ بعد انتصار المسلمين في غزوة بَدْر، ووقع منهم ما استوجَبَ حصارَهم، فقد كانوا أوَّلَ من نقضَ العهدَ من اليهود، وكان الرسول ﷺ قد وَعَظَهم وحذَّرهم، وقال لهم: «يا معشر يهود، إحذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة».

فكان مما قالوه: يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ أنك لَقيتَ قومًا لا عِلْمَ لهم بالحرب فأَصَبْتَ منهم فُرصَةً، إنَّا والله، لئن حَارَبْنَاك لتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ الناس.

فجاءت العاقبة مُخبرَةً بصدْق ما قاله الله لرسوله ﷺ وأمَرَه أن يُخبرهم به، من قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(٢).

كما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «ما أُنزلت هذه الآيات إلا فيهم» يعنى في بنى قينقاع الذي قالوا حين بلَّغهم الرسولُ ﷺ وحذَّرهم -: إنَّا والله، لئن حَارَبْنَاك لتَعْلَمَنَّ أنَّا نَحْنُ الناس.

وجدير بَمن تدبَّر مُداولَةَ الأيام بين الناس ألا يغيب عنه ما يُوحي به القرآنُ الكريمُ في الوقائع والأحداث التي أَنْزَل الله فيها قُرآنًا يُتْلَى.

جديرٌ بهم أن يأخذوا هدايتَهم من كتاب ربِّهم وبيان رسولهم ﷺ؛ ليَعْصموا أنفسَهم من ضلال أو إضلال ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٣).

«وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ»(٤).

*****

(١) المجادلة: ٢١ .
(٢) آل عمران: ١٢، ١٣.
(٣) الإسراء: ٩ .
(٤) البخاري - كتاب الحج، حديث رقم ٢١٣٧